عبد الرحمن فضل

«رفضوا إدخالى إلى بلادى بحجة أنهم أسقطوا عنى الجنسية، لكننى عدت بعد أن قضيت خمسة أشهر على ظهر السفينة. وما من قوة تستطيع بعد ذلك اقتلاعى من أرض وطنى»

عبد الرحمن فضل

إنه الشيوعى المصرى الأكثر شهرة فى ثلاثينيات القرن الماضى. إنه الذى سمى «ذارع البحار».

ونبدأ حكايته من البداية. كان فضل نجاراً فى شركة استصلاح الأراضى بقرية حلق الجمل (بحيرة). أسس فى ١٩٢٠ نقابة لعمال شركته وأصبح رئيساً لها. وانضم بنقابته إلى اتحاد النقابات ١٩٢١ وفى الاتحاد تعرف على الاشتراكية وعلى الاشتراكيين. وانضم إلى الحزب. وفى عام ١٩٢٤ قررت قيادة الحزب إرساله إلى موسكو للدراسة فى «مدرسة كادحى الشرق». سافر إلى تركيا حيث كلف الحزب هناك مساعدته على الهرب إلى الاتحاد السوفيتى. لكنه ما إن وصل إلى تركيا حتى وجد الحزب فى محنة، حيث وجهت ضده حملة بوليسية واسعة. لكنه استطاع الاتصال بالحزب. وعمل شيالاً فى الميناء حتى سنحت له الفرصة وتسلل إلى سفينة سوفيتية ووصل إلى موسكو.

درس فى المدرسة ولقن مبادئ وأسس النظرية. وأقام لفترة فى جمهوريات الشرق الإسلامية. ثم تقرر عودته إلى مصر.

لكن الأمر لم يكن سهلاً. فالطاغية صدقى، وبعد أن ألغى دستور ١٩٢٣، استصدر مرسوماً ملكيا فى يونيو ١٩٣١ يجيز إسقاط الجنسية المصرية بمرسوم «عن كل شخص يقيم خارج القطر المصرى ويكون منضما إلى هيئة يكون غرضها نشر دعاية ثورية ضد النظام الاجتماعى أو الاقتصادى للدولة، أو يكون منضما إلى مركز أو فرع أو معهد دراسى أو غير دراسى تابع

لمثل هذه الهيئة»، وفى أغسطس ١٩٣١ صدر المرسوم الملكى بإسقاط الجنسية عن ثمانية رفاق من بينهم عبد الرحمن فضل، وألح عبد الرحمن فضل على العودة، ويقول فى حوار أجريته معه: «كان لازم أرجع لبلدى. مش مهم إنى درست واتعلمت المهم إنى أرجع لمصر علشان أناضل من أجل الاشتراكية»، وفى المدرسة ودعه أساتذته وزملاؤه وقال له أستاذه: «يا عبد الرحمن لقد تعلمت الكثير ولكن حذار أن تتفلسف على أبناء وطنك، إن وطنك لا يحتاج إلى فلاسفة وإنما يريد أناسا يوقظون الشعب».

ومن موسكو بدأت أشهر رحلة عودة للوطن. وصل إلى باريس ومنها إلى أثينا ثم إلى بيريه ليركب السفينة «أيونيا» وكان الحزب اليونانى قد اختارها لأن عليها مهندسا عضوا بالحزب. ووصلت السفينة إلى الإسكندرية (وكانت تعمل بشكل دائم على خط بيريه ـ الإسكندرية) لكن السلطات فى ميناء الإسكندرية منعته من النزول من المركب بحجة أنه غير مصرى وليس معه جواز سفر لبلد آخر. ونبه الأمن على القبطان بأنه مسئول عن عدم السماح له بالنزول من المركب حتى تغادر المياه الإقليمية. وعادت به السفينة إلى بيريه لكنه رفض النزول مصمما على حقه فى العودة إلى الإسكندرية. ويقول عبد الرحمن فضل فى حواره معى: «بقيت على ظهر المركب وتكرر ذهابى وعودتى من بيريه إلى الإسكندرية والعكس ٥٤ مرة. وفى كل مرة أصل فيها إلى الإسكندرية كان يتم حشد عديد من مراسلى الصحف المحلية والعالمية لينقلوا حكايتى». لقد صمم الحزب على إسقاط قانون الجنسية الظالم، ووقعت الحكومة فى الفخ، وبدأت الصحف تحكى قصة هذا العالق على ظهر مركب وبلا أرض تستقبله. ويواصل عبد الرحمن حكايته: «على خط سير السفينة كان العديد من المصريين يسافرون وكنت أشرح لهم قضيتى وأوجه معهم رسائل إلى الصحف وإلى الرأى العام». وشعرت الحكومة اليونانية بالحرج فعرضت عليه النزول إلى اليونان وإقامة مريحة وعملا مربحا لكنه رفض مصمما على العودة لوطنه. وتنشر «الأهرام» (١٩٣٦/٨/٢١) «وصل أمس بعد الظهر على السفينة أيونيا الشاب المصرى عبد الرحمن فضل الذى نزعت جنسيته منه ومنع من الدخول أربع مرات، وعند وصول السفينة ذهب ربانها إلى القنصلية اليونانية ليشكو من بقاء هذا الشاب على سفينته». وتستمر المعركة كل ستة أيام وطوال خمسة أشهر تصل السفينة ويحتشد الصحفيون ويمنع الأمن عبد الرحمن فضل من النزول، وتعود «الأهرام» لإثارة المشكلة (١٩٣٦/٨/٢٧) «عادت الباخرة أيونيا إلى الإسكندرية اليوم

وعاد معها عبد الرحمن فضل ومنعه الأمن من دخول البلاد»، وتمضى «الأهرام» :«ويتعين اتخاذ بعض التدابير لحل هذه المشكلة من الوجهة الإنسانية، لأنه ليس من الطبيعى أن يظل هذا الشاب ذاهبا وعائدا بين مصر واليونان»، ومع نضوج المعركة يوجه عبد الرحمن فضل بيانا إلى الرأى العام تنشره «الأهرام» تحت عنوان «من المصرى التائه» وتعلق «الأهرام» على هذا البيان قائلة: «ولقد طلبنا من ذوى الشأن الاهتمام بحل مشكلة هذا الشاب من الوجهة الإنسانية بحيث يتسنى له أن يصل إلى بر» (١٩٣٦/٨/٣٠). وتستمر المعركة، ويتحرك الرأى العام وتكتب الصحف عديدا من المرات ويسميه مراسل المقطم فى الإسكندرية «ذارع البحار» فيصبح هذا الاسم متداولا على نطاق واسع. وتحاول وزارة الداخلية إيجاد حل وسط لإسكات هذا الصخب الإعلامى فتبلغ الصحف استعدادها «أن تنظر بعين الرفق فى حالة هذا الشاب إذا قامت الأدلة على أنه كف عن اعتناق الشيوعية» (الأهرام- ١٩٣٦/١٠/٢٣)، لكن عبد الرحمن فضل يرفض التخلى عن المبدأ ويواصل رحلته بين بيريه والإسكندرية والعكس، وفى كل ستة أيام تتجدد إثارة مسألته ويتجدد معها سخط الصحف على مرسوم نزع الجنسية المصرية من مواطنين مصريين بسبب مبدأهم.

* * *

«إسقاط الجنسية المصرية عنى أنا وبعض زملائى أمر مخالف للدستور. وأنا أعتمد فى حل مشكلتى على عطف الأمة المصرية وعدالة القضاء وشهامة الصحافة الحرة وصراحة الدستور».

عبد الرحمن فضل (فى رسالة إلى رئيس الوزراء وجهها بعد دخوله سراً إلى مصر)

ويستمر الشاب المناضل على ظهر السفينة حتى يعلن ربانها أنه لن يقدم له طعاماً. وتتصاعد المعركة بهذا القرار وتنشر «الأهرام»: «ونحن لا نظن أن ربان السفينة قصد بما فعل اقتصاد قيمة غذاء عبد الرحمن فضل. وإنما قصد لفت نظر السلطات المصرية إلى حالة هذا الشاب. وقد علمنا أن أحد أقاربه حاول أن يقدم له طعاماً قبل مغادرة السفينة للإسكندرية لكن فضل رفض تسلم الطعام» (١٩٣٦/٩/٢١).

ويكمل فضل روايته فى حواره معى: «أنا كنت أستفيد من ذلك فى إثارة القضية ككل

وفى إحداث أكبر ضجة ممكنة. حتى أصبحت معظم الصحف تتحدث عن قضيتى، وكنت أناقش المصريين الذين يسافرون على السفينة وأثير معهم قضيتى وقضية رفاقى. وفى إحدى المرات تحدثت مع الدكتور قناوى، رئيس المجلس البلدى بالإسكندرية، الذى اقتنع بعدالة قضيتى وعندما عاد إلى الإسكندرية اتصل بمراسل «المقطم» وشرح له القضية. فأطلقت «المقطم» أوسع حملة تضامن معى وبدأت تسمية «ذارع البحار» تتردد كثيراً على صفحات الكثير من الصحف». ومع إصرار عبد الرحمن فضل وتصاعد ضغط الرأى العام بدأت الحكومة فى التراجع. وتنشر جريدة «البلاغ»: «يعرض حضرة صاحب العزة أحمد حمدى محجوب مدير الأمن العام على دولة وزير الداخلية هذا المساء مسألة عبد الرحمن فضل للفصل فيها، ويقول مندوبنا إن النية تتجه إلى إباحة دخوله القطر بقيود ثقيلة» (١٩٣٦/١١/٢٣). وإذ تنضج المعركة يقرر عبد الرحمن فضل أن يلقى إليها بوقود جديد فيعلن للصحف أنه قرر الإضراب عن الطعام. وتنشر «الأهرام» «عادت الباخرة ايونيا من اليونان وعاد عليها عبد الرحمن فضل وهو مضرب عن الطعام منذ ستة أيام، وستعيده السفينة بعد الظهر إلى بيريه وهو بهذه الحالة. وقد علمنا أن السفينة قد تنقطع عن السفر لأن الشركة ستدخلها إلى الحوض الجاف لإصلاحها. فماذا يحل بفضل فى هذه الحالة إذا لم يؤذن له بالنزول إلى البر؟» (١٩٣٦/١١/٢٢).

والمثير للدهشة أن عبد الرحمن فضل كان بإمكانه أن يهرب إلى مصر لكن الحزب اتصل به ومنعه من ذلك حتى تستمر قضية إسقاط الجنسية مشتعلة. وإذ التهبت القضية وانتقلت إلى مجلس النواب عن طريق النائبين فكرى أباظة وعبدالحميد بك عبدالحق.. أبلغه الحزب بقرار الهروب.. ويمضى عبد الرحمن فضل فى حواره معى: «هنا تدخل الحزب الشيوعى اليونانى ونجح فى أن يأتى بقبطان شيوعى للسفينة وبدأ الرفاق فى الإسكندرية فى إعداد الترتيبات النهائية». عندما تتحرك السفينة تاركة ميناء الإسكندرية سيختار القبطان أفضل نقطة يقفز فيها فضل إلى البحر. يقف القبطان على ظهر المركب وفى النقطة المحددة يشعل سيجارة ويقفز عبد الرحمن ليجد مركبا صغيرا فى انتظاره ليعود به إلى أرض الوطن.

ويقول: «قبل أن تتحرك السفينة من الإسكندرية كان هناك عسكرى بوليس يلازمنى دوماً حتى نرحل. فقال لى: انت ناوى؟ وهززت رأسى فقال لا تذهب من الناحية الشرقية فهناك كمين أعده البوليس لبعض مهربى المخدرات».

قفز عبد الرحمن إلى الماء. وكان القارب بانتظاره وهبط عبد الرحمن إلى أرض وطنه «ولم تعد أى قوة تستطيع اقتلاعى منه» ومن مخبئه بدأ عبد الرحمن ورفاق الحزب بالإسكندرية فى شن حملة جديدة. وتنشر «الأهرام» نبأ دخوله مصر لكن الأمن ينفى ذلك غير أن «الأهرام» تعود لتؤكد «مسألة عبد الرحمن فضل ـ ثبوت نزوله إلى البر ـ مسألة دستورية مهمة» وتعلن الأهرام تضامنها مع فضل قائلة «ليس جرماً ما فعله فضل وزملاؤه فى الأصل. وليس عدلاً تجريدهم من جنسيتهم بسببه، فكيف يكون من العدل الآن حرمانهم من العودة إلى أهلهم وبلادهم؟». وحاول البوليس ليستر عجزه أن ينفى وجود عبد الرحمن بالإسكندرية وقال إنه هرب إلى قلب الصحراء. لكن بعض أعضاء مجلس النواب أكدوا أنهم تناولوا طعام الغداء مع عبد الرحمن فى الإسكندرية. ونشرت جريدة «البلاغ» حديثاً أجرته معه، ومن مخبئه وجه عبد الرحمن فضل خطاباً مفتوحاً إلى رئيس الوزراء نشرته أغلب الصحف. لكن «الأهرام» عاتبت عبد الرحمن فضل لأنه استخدم ألفاظاً بها بعض الحدة وتتضمن ملاحظات فلسفية فى رسالة موجهة لرئيس الوزراء (١٩٣٧/١/٤).

وتحت ضغط الرأى العام أعلن البوليس رسمياً أن حل مشكلة فضل ورفاقه تتطلب إلغاء المرسوم الملكى الصادر عام ١٩٣١. وحتى يتم إلغاء المرسوم فإن البوليس سيكتفى بمعرفة مقر عبد الرحمن حتى تحل المشكلة قانونيا. لكن فضل يبدأ الهجوم القانونى، فقد رفع المحاميان الشهيران سيد صبرى وزكى عريبى «دعوى قضائية ضد وزير الداخلية». وجعل د. سيد صبرى من موضوعه مادة لمحاضرة فى كلية الحقوق.

وأخيراً قرر عبد الرحمن فضل، أو بالدقة قرر الحزب أن يسلم نفسه ليس للبوليس وإنما لرئيس مجلس النواب. ويوجه رسالة إلى أعضاء مجلس النواب «إننى ألجأ إلى مجلس النواب كأعلى سلطة تشريعية فى البلاد»، ثم يوجه رسالة أخرى إلى الرأى العام قائلاً فيها: «لا يمكننى أن أقدر خدماتكم فى الدفاع عن الحق وخدمة الإنسانية».

ويعود عبد الرحمن فضل إلى أحضان شعبه وحزبه. وفى ١٩٣٧/١٢/٢٢ تنشر «المصرى» نبأ تعديل المرسوم الملكى وإلغاء بند إسقاط الجنسية، ويمضى عبد الرحمن فضل فى نضاله سنينا عديدة. وعندما أسسنا منبر اليسار أتى إلينا لكن الكثيرين لم يعرفوا حكاية هذا الكهل ولا حكاية «ذارع البحار».